

دور العلماء ورجال الطرق الصوفية في نشر الثقافة العربية الإسلامية في سلطنة الفونج (1504م/909هـ - 1821م/1236هـ)

نبيل رايح آدم سعيد

قسم الجغرافيا والتاريخ، كلية التربية، جامعة كسلا، كسلا، السودان

البريد الإلكتروني: nabeelrabehs9@gmail.com

مستخلص الدراسة

عرف السودان عبر العصور التاريخية المتعاقبة العديد من الحكومات التي كان لكل منها خصائصها المميزة لها، إلا أن أبرز هذه الحكومات هي حكومة سلطنة الفونج وذلك لقيمتها باعتبارها أول دولة إسلامية نشأت في السودان، تأتي هذه الدراسة بعنوان دور العلماء ورجال الطرق الصوفية في نشر الثقافة العربية الإسلامية في سلطنة الفونج، وتهدف إلى إبراز الوضع الثقافي الديني في السودان قبل قيام سلطنة الفونج، وإبراز التطورات الثقافية والدينية التي حدثت في عهد الفونج على يد العلماء ورجال الطرق الصوفية، وقد اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي الوصفي التحليلي للحقائق التاريخية، حيث توصلت إلى عدة نتائج أبرزها أن سلطنة الفونج تُعد نقطة تحول حاسمة في التاريخ الثقافي والديني بالسودان، وأنها أسهمت بشكل جاد في خلق البنية التي شكلت الهوية الثقافية للإنسان السوداني، لذلك فإن هذه الدراسة قد أوصت بضرورة إجراء المزيد من الدراسات التي تستهدف بيان القيمة الحقيقية للدور الذي أدّاه العلماء في سلطنة الفونج، وذلك حفاظاً على الإرث التاريخي الديني والثقافي لهذه البلاد.

الكلمات المفتاحية: العلماء، الطرق الصوفية، الثقافة العربية الإسلامية.

The Role of Scholars and Sufi men in Spreading Arab-Islamic Culture in the Fong Sultanate (1504 / 909H - 1821 / 1236H)

Nabeel Rabeel Adam Saeed

Geography and History Department, Faculty of Education

University of Kassala, Kassala, Sudan

Email : nabeelrabeel89@gmail.com

Abstract

Throughout successive history, Sudan has encountered many governments, each of which has its own distinctive characteristics. Yet, the most distinguished one was the Fong Sultanate due to its value as the first Islamic state in Sudan. The study aims to highlight the religious cultural situation in Sudan before the establishment of the Fong Sultanate, and also to investigate the cultural and religious developments that occurred during the Fong era by scholars and Sufi men. The study adopted the historical descriptive and analytical method of historical facts, where it reached several findings, most notably that the Fong Sultanate is a crucial turning point in the cultural and religious history of Sudan, and that it contributed seriously in creating the structure that constituted the cultural identity of the Sudanese man. Thus, this study has recommended The need to conduct further studies that aim at demonstrating the true value of the role played by scholars in the Sultanate of Fung, in order to preserve the historical religious and cultural heritage of this country.

Keywords: Scholars; Sufism; Arab-Islamic Culture.

مقدمة:

معلوم أنه سبق قيام سلطنة الفونج في السودان موجة من الهجرات العربية من مصر وشبه الجزيرة العربية إلى السودان، كان لها دور رائد في نسج القيمة المادية للثقافة الإسلامية فيما بعد، والحقيقة أن دخول العرب إلى السودان كان يعني دخول وانتشار ثلاث ظواهر متتابعة هي الدين الإسلامي واللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية، وقد كان للعلماء ورجال الطرق الصوفية الدور الأبرز في انتشار تلك الظواهر.

العلماء هم فقهاء الإسلام، ومن دارت الفتيا على أقوالهم بين الأنام، الذين حُصِّوا باستتباط الأحكام، وعُتُوا بضبط قواعد الحلال والحرام، فهم في الأرض بمنزلة النجوم في السماء، بهم يهتدي الحيران في الظلماء، وحاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب(الدمشقي، 1973م)، أما المتصوفة فهم المتجردون عن زينة الحياة وشكلياتها يأخذون أنفسهم بأسلوب من التقشف والعبادات والأوراد والجوع والسهر في الصلاة أو تلاوة الورد فهم بذلك يضعفون في أنفسهم الجانب الجسدي ويقوون فيها الجانب الروحي سعياً إلى تحقيق الكمال النفسي وإلى معرفة الذات الإلهية(إبراهيم هلال، 1359هـ).

أهمية الدراسة:

تأتي أهمية هذه الدراسة من كونها تتناول فترة تعد من أهم فترات التاريخ السوداني باعتبارها مفتاح أساسي لفهم التطورات الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية التي جرت على أرض السودان خلال الفترات التالية لها، وبالتالي تعتبر المرتكز الرئيس لدراسة الإرث التاريخي الثقافى الديني في السودان الحديث.

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة لتحقيق التالي:

1. إبراز الوضع الثقافى الديني بالسودان قبل قيام سلطنة الفونج.
2. عكس التطورات الثقافية والدينية التي حدثت في عهد الفونج على يد العلماء ورجال الطرق الصوفية.
3. بيان الأثر المادي والمعنوي للبعد الثقافى الديني والعربي الذي خلفته فترة سلطنة الفونج على واقع المجتمعات السودانية اليوم.

منهج الدراسة:

اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي، الوصفي التحليلي، ويعرف المنهج التاريخي بأنه المنهج الذي يقوم بإحياء الأحداث التي حصلت في الزمن الماضي، وذلك من خلال جمع البيانات المطلوبة، وتحليلها، والتأكد من صحتها، أما المنهج الوصفي التحليلي يقوم فيه الباحث العلمي بوصف الظواهر والمشاكل العلمية المختلفة، وحل المشكلات والتساؤلات التي تقع في دائرة البحث العلمي، ثم تم تحليل البيانات التي تم جمعها عن طريق المنهج الوصفي، حتى يمكن إعطاء التفسير والنتائج المناسبة عن تلك الظاهرة.

تمهيد:

إذا كان قد قدر للثقافة الإسلامية أن تنمو وتزدهر في السودان فإن الفضل في ذلك يرجع إلى قيام السلطنات الإسلامية لا سيما سلطنة الفونج، ذلك لأن ظهور سنار في عهد الفونج وتدفق التجار والعلماء إليها وما صاحب ذلك من انتعاش اقتصادي، ثم ما حققه الفونج أنفسهم من استقرار سياسي واجتماعي ساهم كل ذلك في نشر الثقافة الإسلامية، فقد كان ملوك الفونج يشجعون العلماء المسلمين على القدوم إلى سنار والإقامة فيها، وكانوا يقدرونهم ويبسطون عليهم ظل الطمأنينة ويمنحونهم الأعطيات ويعفونهم من الضرائب(محمود، د.ت).

1. الأحوال في السودان قبل قيام سلطنة الفونج:

سبق قيام سلطنة الفونج بالسودان فترة تاريخية مهمة عرفت بفترة الممالك المسيحية في السودان، ذلك لأنها شهدت قيام العديد من الممالك والحكومات التي اتخذت المسيحية ديناً لها حيث بلغ عددها أكثر من حوالي ستين مملكة، ولكنها أخيراً استقرت عند ثلاث ممالك مشهورة باسم الممالك النوبية المسيحية بالسودان، هي مملكة علوة في الجنوب وعاصمتها سوبا، ومملكة المفرة وعاصمتها دنقلا العجوز ومملكة نوباتيا في الشمال وعاصمتها فرص. وعلى الرغم من قيام تلك الممالك إلا أن المسيحية وعلى الرغم من انتشارها الواسع في شتى أنحاء بلاد النوبة لم تتخذ جذوراً عميقة باعتبارها دين ويرجع ذلك لعدة أسباب تتمثل في:

1. أن المسيحية ببلاد النوبة لم تمثل اتجاهاً وطنياً أو قومياً.
2. عاشت المسيحية في بلاد النوبة إلى جانب الأفكار الدينية الوثنية فلم تقتلع هذه الأفكار ذلك لأن اعتناق النوبيين لها لم يكن عن عقيدة وفهم وتعمق ودراسة.

3. ظلت الكنيسة المصرية تعامل الكنيسة النوبية كطفل صغير، فتعين لهم المطارنة كما تعين جميع رجال الدين، وكانوا من المصريين الذين عاش أغلبهم بينهم وبين الشعب النوبي حجاب حاجز، فلم يتجاوبوا معهم في مشكلاتهم وظروفهم، فظلت الكنيسة المصرية ورجالها يمثلون عنصراً أجنبياً (الجمال، 2008م).

4. كانت الطقوس الدينية تؤدي بلغة أجنبية لم يتعمق فيها الشعب ليساهم فيها عن علم ومعرفة.

5. كثيراً ما كانت الظروف الداخلية في مصر تؤدي إلى امتناع البطارقة عن إرسال مبعوثين مصريين لمدة طويلة فتظل الوظائف الدينية خالية، ويظل الناس لفترة طويلة لا يمارسون الطقوس الدينية.

6. لم يحدث أن خرج من النوبيين علماء متخصصون في الدين أو الفلسفة الدينية مستمدين تجاربهم من القديسين والشهداء كما في مصر (الجمال، 2008م).

ويمكن ملاحظة الأثر الضعيف للمسيحية في وسط الشعب النوبي من خلال الأسلوب الانسيابي الذي دخل به العرب والمسلمون إلى بلاد السودان في ظل وجود الديانة المسيحية، فعملية انتشار الإسلام حدثت بشكل تدريجي من خلال التصاهر الذي كان يتم بين العرب الوافدين والسكان المحليين الأمر الذي يشير لعدم تشدد النوبيين في قيمة الاختلاف العقائدي بينهم والعرب المسلمين الذين لم يكن دينهم يمنعهم من الزواج من النصراني بشكل عام وذلك وفق الآية الكريمة في قول الله تعالى: (أَلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيزِينَ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥﴾) (المائدة ٥).

إن أبرز المنجزات الثقافية التي خلفتها فترة الممالك المسيحية في السودان تتمثل في مجموعة النصوص ذات الطابع الديني والجنائزي، والتي من خلالها يمكن معرفة طبيعة الحياة الدينية، غير أنها لا تستطيع أن تعطي معنى واضح عن قيمة الحياة الاجتماعية والسياسية، وقد عثر على هذه النصوص في بعض الصخور، وشواهد القبور وعلى جدران الكنائس وعلى الفخار، والورق. كما استمر التعدد اللغوي في بلاد النوبة في هذه الفترة حيث استخدمت اللغتان المكتوبتان الإغريقية والقبطية أولاً ثم اللغة النوبية القديمة بعد أن صارت مكتوبة في القرن العاشر الميلادي باعتبارها لغات رئيسية لتلك الفترة الحضارية، والنوبيون عندما بلغوا قمة ازدهارهم في القرن العاشر الميلادي توصلوا إلى وضع أبجدية للغتهم الأم،

واستعملوا في كتابتها الحروف الإغريقية إلى جانب بعض الحروف القبطية، فضلاً عن حروف يعتقد أنها أخذت من اللغة المروية النسخية (الجمال، 2008م)، كما شهدت هذه الفترة بروز ظاهرة تلاوة الصلاة والترانيم الكنسية المختلفة بالحرف اللاتيني (أحمد، 2002م).

2. قيام سلطنة الفونج:

تعد مملكة الفونج من أشهر الممالك الإسلامية في السودان والتي عرفت أيضاً بالسلطنة الزرقاء، ومرد تسميتها بهذا الاسم يرجع إلى سحنات ملوكها الذين من أشهرهم عمارة دنقس وبادي أبو شلوخ وعجيب المانجك (شرارة، 2011م)، ويقول بعضهم أن تسميتها بالسلطنة الزرقاء هو مقابلة للسلطنة الحمراء في مصر (حسن، 2012م)، ويعود تاريخها إلى الفترة من عام 1505 - 1820م، وامتدت على النيل الأزرق والنيل الأبيض حتى منطقة الشلال الثالث على النيل وتوسع نفوذها ليشمل بلاد البجة بشرق السودان ومنطقة كردفان من ناحية الغرب (عيسى، 2010م)، أما فيما يتعلق بأصلها فهناك اختلاف بشأنه، فقد أرجع البعض هذا الأصل أنها من قبائل الشلك في أعالي النيل الأبيض، في الوقت الذي أرجع الآخرون أصلها إلى عناصر وفدت من دارفور أو حتى من برنو، وادعى آخرون أنها من أصل عربي (يحيى، 2010م).

لقد أطنب الباحثون والمؤرخون واسترسلوا كثيراً في قضية أصل الفونج ونسبتهم ولا يزالون يكتبون في قيمة الآراء الثلاثة التي تتجاذب الفونج هنا وهناك، غير أننا نعتقد أنه يجب تجاوز هذه الجزئية من قبل الباحثين المعاصرين ذلك لعدم جدوى تناولها عند مقارنتها بالقيمة الحقيقية التي يجب البحث عنها وهي الأثر الحضاري لعناصر الفونج في خارطة التاريخ السوداني، فالحقيقة التي لا يمكن تجاوزها هي أن الفونج كانوا الأساس في قيام كيان سلطنة الفونج، ولا نعتقد أن الوقوف عند أصلهم ومعرفة سيغير شيئاً من هذه الحقيقة.

وكيفما كان فالثابت تاريخياً أن سلطنة الفونج نشأت نتيجة اتحاد بين مجموعتين هما الفونج بزعامة عمارة دنقس، والعدالاب بقيادة عبد الله جماع، وتقاسم الطرفان السلطة في السودان بحيث أصبح نفوذ الفونج يمتد من قري شمال الخرطوم وأخيراً الحلفاية إلى شمال الدولة، بينما يشمل نفوذ الفونج العاصمة سنار وإلى الجنوب منها، كما قضى الاتفاق أن يؤمّن كل منهما قوافل التجارة ويبسط الأمن في منطقتيه (عبد الله، 2010م).

امتد حكم السلطنة الزرقاء حتى العام 1821م وقد حكم في هذه الفترة خمسة

وعشرون سلطاناً تراوحت مدة حكمهم حسب الأحوال السياسية السائدة، فمنهم من حكم ثلاثين عاماً كعمارة دنقس ومنهم من تجاوز الثلاثين مثل بادي أبو دقن الذي حكم ثمانية وثلاثين عاماً وهي نفس المدة التي حكمها بادي أبو شلوخ من عام 1724م حتى تم خلعها عام 1762م. أما بالنسبة لشيوخ العبداللاب فقد حكم منهم حوالي اثنان وعشرون شيخاً وكانت أطول فترة حكم هي فترة مؤسس العائلة الشيخ عبد الله جماع الذي امتدت فترة حكمه إلى ستين عاماً أو يزيد قليلاً (عمر، 2006م).

3. بعض علماء ورجال الطرق الصوفية في السودان:

إن سلاطين الفونج استقدموا كثيراً من العلماء والفقهاء والمتصوفة لتعليم الناس أمور دينهم، فقد وفد العلماء ورجال الدين إلى البلاد بغرض هداية الناس وإرشادهم عندما ترامى إلى سمعهم قيام دولة إسلامية في السودان، فلمع العلماء أمثال تاج الدين البهاري، وإبراهيم البولادي، وإدريس ود الأرياب، وحسن ودحسونة، والزين صغيرون، ومحمد نور ود ضيف الله صاحب كتاب الطبقات، والشيخ فرح ود تكتوك، حيث نشر هؤلاء العلماء والمتصوفة وتلاميذهم الدين الإسلامي وفقهوا الناس وبصروهم بأمور دينهم، رغبهم في ذلك ما كانوا يجدونه من التجارة والإكرام من ملوك سنار (عبد الله، 2010م).

ويبدو أن النهضة الثقافية الدينية في عهد الفونج قد ارتبطت ارتباطاً حاسماً بنبوغ هؤلاء العلماء في البلاد كما أن نبوغهم ارتبط بشخصيات ملكية معينة. أمثال الشيخ عجيب المانجلك الذي قاد النهضة الدينية في دولة الفونج حسبما أورد ود ضيف الله في كتابه الطبقات في نقطة سنشير إليها لاحقاً في هذا البحث والتي يقول فيها: (ففي أول ملكه قدم الشيخ إبراهيم البولاد من مصر إلى دار الشايقية... الخ).

يقول أحمد بن الحاج أبو علي في مخطوطة كاتب الشونة تحقيق الشاطر البصيلي عبد الجليل: (...ولم تشتهر في تلك مدرسة علم ولا قرآن، ويقال إن الرجل يطلق المرأة ويتزوجها غيره في نهارها بدون عدة، إلى أن قدم الشيخ محمود العركي من مصر وعلم الناس العدة "في الطلاق" وسكن على ساحل النيل الأبيض وبني له قصرًا به، وفي أول النصف الثاني من القرن العاشر ولي السلطان عمارة أبو سكيكين الشيخ عجيب المانجلك، ففي أول ملكه قدم الشيخ إبراهيم البولاد من مصر إلى دار الشايقية ودرّس فيها الفقه وانتشر علم الفقه في الجزيرة، ثم بعد سير قدم الشيخ تاج الدين البهاري من بغداد وأدخل الصوفية في دار الفنج، ثم

قدم الشيخ التلمساني المغربي إلى الشيخ محمد ولد عيسى سوار الذهب وسلكه طريق القوم، وعلمه الكلام وعلوم القرآن من روايات وتجويد ونحوه، وانتشر علم التوحيد في الجزيرة، لأنه أخذ عليه القرآن عبد الله الأغبش ونصر والد الفقيه أبي سنيينة بأربجي، ثم ظهرت ولاية الشيخ إدريس، وقيل إنه أخذ من الرسول عليه الصلاة والسلام، وقيل قدم عليه رجل من الغرب بالخطوة اسمه عبد الكافي ووجد في جيبه بعد وفاته أنه قال: شيخي في الطريق عبد الكافي المغربي مجذوب في الحقيقة، وشيخي القطب الشيخ علي الخواص مشرق بلاد الهندي، وبعد يسير ظهرت ولاية الشيخ حسن ولد حسونة بمدد من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قدم الشيخ محمد بن قرم دار بربر، وأدخل فيه المذهب الشافعي وانتشر مذهبه في الجزيرة (أبو علي، 2009م).

يلاحظ من تخصصات أولئك العلماء أنهم كانوا يمثلون الحياة العقلية لذلك العصر أصدق تمثيل، ويلبون حاجة المجتمع الذي تحكمه القيم الإسلامية إلى حد كبير، فمنهم المقرئ الذي تخصص في تحفيظ القرآن الكريم وتدریس علومه من روايات وتجويد، ومنهم المتكلم الذي سعى لنشر التوحيد، ومنهم الفقيه الذي أخذ على عاتقه تدریس مختصر خليل ورسالة ابن أبي زيد القيرواني وبعض مذاهب الفقه، كما كان منهم اللغوي الذي شغل نفسه بتدریس النحو، كما قدم من قام بنشر الصوفية متخذاً منها وسيلة لنشر الإسلام في السودان (الحاج، 2005م).

إن ما يعيننا في سيرة هؤلاء العلماء وقدمهم إلى بلاد السودان أيام سلطنة الفونج هو قيمة ما قدموه من معرفة وثقافة أحدثت تغييراً جذرياً في البنية الثقافية الدينية في السودان لذلك جديرٌ بنا أن نتناول تراجمهم لنستشف من خلالها الأثر الثقافي المادي الذي أحدثوه في بلاد السودان.

3-1. الشيخ محمد بن عبد الكريم التلمساني: أبو عبد الله، محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني، والمغيلي: بفتح الميم نسبة إلى مغيلة قبيلة من البربر استوطنت تلمسان ووهران والمغرب الأقصى، وهي فرع من قبيلة صنهاجة كبرى شعوب الأفارقة البيض، ولد في مدينة تلمسان سنة 790هـ/ 1425م، من عائلة راقية النسب، ومشهورة بالعلم والدين، وتعلم على يد والده، الذي علمه قراءة القرآن الكريم، وكانت مظاهر النبوغ والتفوق تبرز في ملامحه، حتى صار يعرف بالداعية المصلح، والعالم والفقيه، والقارئ محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي، الذي وصل إلى مملكة صنغاي بالنيجر، مروراً ببلاد التكرور وكانو، بعد أن انتقل من تلمسان إلى واحات أدرار تمنطيط توات، وغيرها من القصور

بالصحراء الإفريقية الشاسعة مجاهداً في سبيل نشر الدعوة، وتنقية الإسلام ممّا علق به من شوائب البدع والخزعلات (ناعوس، 2010م).

فالمغيلي يعد واحداً من أقطاب الفقه المالكي بالجزائر، نبغ فيه وتبحر، فألف واجتهد وكان لمذهبه انتشار واسع في السودان الغربي مما يؤكد على دوره الإصلاحية البارز. فقد ألف المغيلي العديد من المؤلفات الفقهية منها "مغني النبيل" شرح فيه مختصر خليل، وله تأليف في المنهيات ومختصر تلخيص المفتاح وشرحه، وله في الموارث ومختصر في علم الفروض. وتعد فتاوى المغيلي من أهم اجتهاداته التي وصلت إلينا، وُجدت ضمن مجموع الفتاوى التواتية، وفيها للمغيلي اجتهادات أصيلة خالف فيها علماء عصره، كما تُعد فتواه في توات التي أباح فيها دماء أنصار اليهود إحدى القضايا التي شغلت العلماء وقتئذٍ، وانتصر فيها المغيلي على خصومه من العلماء والساسة (شترة، 2011م).

لقد تعاضم اهتمام الشيخ المغيلي بأحوال إمارات المسلمين في توات والسودان الغربي، ورأى أن يرتحل إليها للدعوة والإصلاح، وذلك بالرغم من التحديات التي كانت تجابه أنصاره وإمارته الناشئة في توات، وقد بذل جهوداً كبيرة في الدعوة إلى الإسلام والنصح للحكام والأمراء، ووقف على أوضاع هذه المناطق مجتهداً في علاج مشكلاتها السياسية والاجتماعية، ووجد كما يبدو الأجواء سانحة لأن يبعث نهضة إصلاحية في الإمارات الإسلامية وأن يسهم في نشر الإسلام بين شعوب الممالك الوثنية، ونظراً لخصوصية المنطقة السياسية والاجتماعية تُعين على المغيلي الاجتهاد في كثير من الأحكام السياسية، وبعث نظم وقوانين إدارية تُسير هذه الإمارات الحديثة العهد بالإسلام وبذلك فسح أمامه باباً واسعاً للاجتهاد والفتوى (شترة، 2011م).

لقد شكّلت حياة الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي، نواة حركة حوارية وإصلاحية حقيقية في حياة كثير من الشعوب والأفراد، وامتد صداها داخل وخارج حدود وطنه تلمسان عربياً وإفريقيا وهو ما تحدثت عنه كثير من المصادر والمراجع الإسلامية، لقد استطاع الإمام بمنهجه في الحوار أن يعطي لنفسه مكانة عظيمة أصبح معها اسمه عند الأفارقة خصوصاً مقروناً بلقب الإمام، وباتت كتبه مدرسة روحية تُربي عليها العديد من علماء القارة، فكان بذلك من أوائل الذين أخضعوا المعارف الإسلامية في إفريقيا لمحك الحوار والنقاش. كما قام بتصحيح كثير من المفاهيم المغلوطة في أذهان العامة (شترة، 2011م).

3-2. الشيخ أحمد أرباب العقائدي: هو أحمد بن علي بن أرباب بن علي بن عون بن

عامر بن صبح بن فلاح بن شرف الدين بن محمد الملقب بعجم بن زائد بن محمد محس (الذي تنتسب إليه قبائل المحس) بن مرزوق بن الملك سعد بن الملك جامع بن الملك حسن بن الملك أحمد بن الملك عامر بن عبد الله بن عبد الكريم بن يعقوب بن جابر بن سعد بن موسى بن أويس بن جامع سكر بن سالم بن عبد الرحمن بن علي بن سليمان بن محمد بن زيد بن قتادة بن حارثة بن عبادة بن أبي بن كعب البدري الأنصاري الخزرجي أحد كتاب الوحي على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم (علي، 2009م).

ولد الشيخ أحمد أرباب العقائد بجزيرة توتي عام 1017 هـ ونشأ بها واشتهر أمره بها، حفظ القرآن الكريم على يد والده وعمره عشر سنوات وأخذ علم الفقه من الشيخ الزين ولد صغيرون وأخذ علم العقائد من الشيخ علي ود بري، ولقب بالخشن لخشونة جسمه من كثرة الوضوء والغسل ولقب أيضا بأرباب العقائد (أي أرباب في العقيدة) وذلك لتأليفه كتاب العقائد، كما ألف كتابا في أركان الإيمان اسمه (الجواهر). وقد ذكر كاتب الشونة: أن الرجال قد شدت إليه لتلقي علم التوحيد والتصوف على يديه وبلغ عدد طلبته ألف ونيف من دار فونج إلى برنو بغرب السودان، ومن تلاميذه: الشيخ خوجلي بن عبد الرحمن الكباني والشيخ حمد ود أم مريوم والفقير حمد بن عبد الرحيم المشهور ب(حتيك) والفقير محمد بن ضيف الله (صاحب كتاب الطبقات) والفقير هارون بن حصي والشيخ فرح ود تكتوك (البطحاني الذي ينتهي نسبه للعباس بن عبد المطلب) (القاضي، 2008م).

ظل الشيخ أحمد يدرس بتوتي ثم عبر النهر إلى موقع الخرطوم الحالي وكانت به آنذاك حلة لصيادي السمك ويعتبر أرباب العقائد المؤسس لمدينة الخرطوم وقد كانت هجرته إلى موقع الخرطوم بقصد التعبد غالبا في الغابة الواقعة بين النيلين وهناك تدفق عليه الطلاب، وأسس أرباب العقائد مسجدا في الخرطوم وهو المسجد الحالي في سوق الخرطوم وقد صلى فيه الإمام المهدي أول جمعة بعد دخوله الخرطوم في 26 يناير 1885 م، توفى بسنار عام 1102 هـ الموافق 1691م وكان عمره خمسة وثمانون عاما. وقد دفن بسنار في عهد السلطان بادي الأحمر (القاضي، 2008م).

3 - 3. أولاد جابر: أولاد جابر نسل جابر بن عون بن سليم بن غلام الله بن عائد الركابي، وقد أنجب عون ولدين هما جابر وإليه النسب لأولاد جابر الأربعة وأختهم فاطمة زوجة محمد بن سرحان وأنجب جبر الله. وأولاد جابر أمهم صافية (حاج حمد، د.ت).

3-3-1. الشيخ إبراهيم البولاد: هو الشيخ الإمام الحجة إبراهيم بن جابر بن عون بن سليم بن رباط بن غلام الله والد السادة الركابية، ولد بترنج جزيرة رباط بأرض الشايقية، دخل مصر وتفقّه على الشيخ البنوفري حيث أخذ عليه الفقه والأصول والنحو، ثم رجع إلى ترنج ودرس فيها خليلاً والرسالة، وهو أول من درّس خليلاً ببلاد الفونج وشدت إليه الرحال وكانت طريقته في الخليل سبع ختمات علم فيها أربعين رجلاً من تلاميذه الذين صاروا فيما بعد كلهم أولياء وأقطاب، من بينهم عبد الرحمن بن حمدتو، وأخوه صالح وغيرهم (ضيف الله، 1349هـ).

يرجع سبب تسميته بالبولاد إلى قصة مفادها أن رجلاً حلف أن يدخل في بيته جميع ما خلقه الله تعالى، فأفتاه بوضع المصحف على سريره واستشهد بقوله تعالى: (.. ما فرطنا في الكتاب من شيء..) فقال له شيخه أنت بولاد البربر، فمن ذلك صارت تسميته بالبولاد (ضيف الله، 1349هـ)، وأعقب إبراهيم البولاد ولدين هما حمد ومحمد، ومحمد هذا هو محمد الكبير لأن محمد الصغير هو ابن فاطمة بنت جابر الذي اشتهر ب(الصغيرون). وانتقل أحفاد إبراهيم البولاد إلى منطقة الأبواب في فترة حكم الشيخ عجيب المانجك حيث أكرمهم وأحفادهم، وهي المعروفة اليوم الجابراب أو البواليد، وتفرق هؤلاء لنشر القرآن، فرحل فرع منهم الشيخ حاج حمد بن عثمان وأقام بمنطقة ود رملی، وذلك بإشارة من أحفاد الشيخ عجيب الذين منحوه أرضاً لإقامة الخلوة، وهي قائمة حتى الآن يقوم عليها خليفة أولاد جابر. وانتشر أحفاد إبراهيم البولاد كما تفرق أحفاد إخوته في السودان مثل جزيرة نسرى والكممر والجابراب وحجر الطير والبواليد وسلوة والجريف والعاصمة المثلة بالحاج يوسف والدروشاب وغيرها. وفي مدني في منطقة أم سنط وغرب السودان في بارا والنهود والفاشر، وبقي جزء منهم في ديار الشايقية في أواسل والباسا والكرفاب وماحولها (حاج حمد، دت).

3-3-2. عبد الرحمن بن جابر: هو أحد تلاميذ أخوه إبراهيم، ومن ثم رحل إلى مصر وعاد إلى ترنج وحل مكان أخيه إبراهيم بعد وفاته. وبنى ثلاثة مساجد واحد في دار الشايقية والثاني بكورتى والثالث بمنطقة الدفار يمضى في كل واحد أربعة أشهر، وذلك كما كان يفعل شيخه البنوفري وختم مختصر خليل أربعين ختمة، اشتهر بابنه إدريس، وهو الذي خلف عمه إسماعيل في التدريس أما تلاميذه فقد اشتهروا بالزهد والتصوف ومنهم الشيخ عبد الله العركي أخو الشيخ دفع الله والمسلمي ود أبو ونيسيه والشيخ أبو دلق بدنقلا وإبراهيم ولد أم رابعة، وهو الذي كتب له الإجازة المشهورة، وعبد الرحمن بن الشيخ النويري ويعقوب بن الشيخ بانقا الضرير، والشيخ لقانى خال الشيخ حسن ود حسونة، عيسى بن محمد

عيسى سوار الذهب، وقد أَلَفَ الشيخ عبد الرحمن رسالة في التصوف (مرشد المريدين) ورسالة في الفتاوى والأحكام (حاج حمد ، دت).
3-3-3. عبد الرحيم بن جابر:

أخذ العلم عن أخيه إبراهيم أولاً، ولم تذكر عنه المصادر شيئاً سوى ذلك، قال ود ضيف الله: عبد الرحيم أعبدتهم، أي أنه أكثرهم انشغالاً بالعبادة، وهذا ما أظنه الذي جعل ذكره خافتاً في العلم والتعلم بين أخوته والله أعلم (حاج حمد ، دت).

3-3-4. إسماعيل بن جابر:

بدأ العلم على أخيه إبراهيم، وجلس للتدريس بعد عبد الرحمن، ثم ذهب إلى مصر واجتمع بالشيخ البنوفري وأجازه، ثم بعد وفاة أخيه عبد الرحمن جلس لتدريس مختصر خليل، وكان أزهد أخوته وقد حج بيت الله ومعه ابن أخته محمد بن سرحان وأخته، ومن أشهر تلاميذه ابن أخته الشيخ محمد بن سرحان (صغيرون) والشيخ عبد الرحمن ود حمتو (حاج حمد ، دت).

3-3-5. فاطمة بنت جابر:

هي أختهم وأم محمد الصغير التي تزوجها محمد بن سرحان، وكانت صاحبة علم وفقه وزهد، حجت مع أخيها إسماعيل وابنها (حاج حمد ، دت).
توفى اولاد جابر ودفنوا في ترح بالجزيرة، والتي أفتتح فيها مسجد يخلد ذكرى هؤلاء العلماء الفقهاء الزهاد ويحيى تشبثهم في العلم والتعلم (حاج حمد ، دت).

إن ما يسترعي الانتباه في سيرة هؤلاء العلماء تجوالهم بين البلدان طلباً للعلم، وتلك قيمة ينبغي الوقوف عندها، فالسفر له ما بعده من آثار تكشف المستور لمن مارسه وتنور له بصيرته، وتعطيه البيان عن أحوال الخلق ومشاربهم، وصدق المثل السوداني "شق الديار علم" ذلك أن المعرفة التي جناها علماء المسلمين من حلهم وترحالهم هي التي أعطتهم القدرة أكثر من غيرهم على قيادة المجتمعات لإمكانياتهم غير المحدودة على التعامل والتأقلم مع كل الظروف، ومع كل أنواع البشرية فكانوا بذلك هداة مهتدين مترفعين عن صفائر الأمور التي ربما حاولت في كثير أحيان الحليولة بينهم وأهدافهم.

4. الطرق الصوفية التي ازدهرت في حقبة دولة الفونج:

إن التصوف هو إحدى الدرجات العلمية والروحية والخلقية التي سعى العلماء

للحاق بها في حلهم وترحالهم، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال دراسة بعض الطرق الصوفية التي ازدهرت في السودان خلال حقبة الفونج والتي منها:

4-1. الطريقة القادرية:

مؤسسها هو عبد القادر الجيلاني الذي ولد في فارس عام 1077م وتوفي في بغداد عام 1166م، وكان عبد القادر عالماً بأصول الدين وفقهياً حنبلياً قبل أن يكون صوفياً (عمر، 2006م)، تعد الطريقة القادرية من أوسع الجماعات الصوفية انتشاراً في البلاد الإسلامية، وقد أدخلها السودان تاج الدين البهاري، وأبرز رجالها في عهد الفونج الأمين بن عبد الصادق جد الصادق، وبانقا الضيرير جد اليعقوباب، والشيخ عجيب المانجلك جد العبداللاب وعبد الله دفع الله العركي جد العركيين(عبدالله، 2015م).

4-2. الطريقة الشاذلية:

وتنسب الى الإمام أبي الحسن الشاذلي الذي انتشرت تعاليمه بمراكش في القرن الخامس عشر الميلادي على يد أبي عبد الله محمد سليمان الجزولي (فتح الرحمن د.ت)، دخلت السودان على يد الفقيه حمد بن دنانة ثم رسخت دعائمها في عهد الفونج على يد الشيخ خوجلي عبد الرحمن المحسي ومن بعده اشتهر حمد بن محمد المجذوب(عبد الله، 2015م)، ويعتقد البعض أنه لم يكن لهذه الطريقة شعائر معينة أو نظام منهجي واحد، ولهذا السبب توسعت هذه الطريقة لأنها تسمح للمريدين بحرية الحركة(عمر، 2006م).

4-3. الطريقة الختمية:

كانت نتيجة لاجتماع خمس طرق اتصل بها السيد محمد عثمان الميرغني، وهي النقشبندية والقادرية والشاذلية والجنيدية والميرغنية، فأخذ الحرف الأول من كل طريقة ليصوغ منها معادلة نقشجم ليرمز بها إلى التوفيق بين تلك الطرق، وكانت الفكرة الأساسية عند محمد عثمان هي الوحدة الإسلامية، على أن الأسباب الموضوعية التي أدت إلى ظهور وانتشار هذه الطريقة تكمن في ظروف العصر المتمثلة في بروز فئة تجارية تبحث عن وعاء مركزي ينسق لها ويؤمن خطوها في تراكم رأس المال التجاري، ويحفظ لها ممارسة شعائرها الصوفية دون أن تخل بنشاطها التجاري، وكانت للطريقة الختمية الريادة والغلبة نسبة لكثرة مريديها وانتشارها في جميع فئات المجتمع(عمر، 2006م).

4-4. الطريقة السمانية:

تفرعت هذه الطريقة عن القادرية وهي فرع من فروع الشيخ السمانى المدفون بالمدينة المنورة وقد دخلت السودان في العهود الأخيرة من دولة الفونج على يد السيد احمد الطيب ود البشير المتوفى في العام (1239هـ) (فتح الرحمن، د.ت).

5. دور العلماء ورجال الطرق الصوفية في نشر الثقافة العربية الإسلامية في سلطنة الفونج:

إن قيام سلطنة الفونج واستمرارها ونجاحها في بناء وحدة الدولة السودانية التي ساهمت كل حضارات وأجزاء السودان في تشكيلها ومثلت الثقافة فيها مرتكزاً أساسياً، كل ذلك جاء نتيجة لتضافر عدة عوامل تمثلت أبرزها في اتفاق الكيانات السودانية في ذلك الزمن ممثلة في القبائل العربية بقيادة عبدالله جماع والقبائل المحلية بقيادة عمارة دنقس على قيام كيان السلطنة، إلى جانب اعتراف السلطنة بأهمية العلماء في الدولة والاستماع إلى آرائهم واعتبارهم ممثلين عن الأمة، فضلاً عن انصهار كل جزئيات الدولة السنارية في كلياتها وانصهار هذه الكليات في الجزئيات فتوحدت الدولة بشكل متماسك وقوي، ظهر في التصاهر والمشاركة في سبل كسب العيش المحلية بين كيانات الدولة السنارية من عرب وسكان محليين مما أدى إلى التمازج القومي واستمرار الدولة (الصادق، 2006م).

على أن هذا السلوك كله كان نتاج طبيعي لحركة العلم والعلماء التي جابت أرجاء الدولة وصنعت المناخ الملائم لظهور مثل هذه العوامل ذلك أن الحلف الفونجي العبداللابي لم يكن الحلف الوحيد الذي عقد بين قبيلتين في تلك الحقبة في منطقة السودان عموماً، ولكن هو الوحيد الذي كتب له النجاح بل وتجاوز حدود أهدافه إيجاباً فبلغ مبلغ الدولة، وإن كانت هنالك أسباب ميزته عن غيره من الأحلاف فهي أن هذا الحلف نشأ في المنطقة التي حظيت بتوفر مغريات الحياة فكانت النواة الأولى للدولة وكانت الدولة مغرية لجذب العلماء وإنجابهم.

والحقيقة أنه وفد لسلطنة الفونج علماء من شتى البلدان العربية كاليمن ومصر وبلاد الشام وشمال إفريقيا وتونس والمغرب، حيث عملوا في أول الأمر على نشر الدين والثقافة الدينية والعربية في مختلف فئات المجتمع، وأنشأوا الخلاوي والمساجد وأقاموا بها مجالس وحلقات التعليم الديني والعربي، فنشروا علم التوحيد والفقهاء وعلم الفرائض على المذهب المالكي، الأمر الذي أدى إلى ازدهار العلوم في بلاد الفونج لاسيما علوم القرآن المتمثلة في القراءات والتجويد ورسم القرآن على يد محمد بن عيسى سوار الذهب، وصاحب ذلك اهتماماً بجمع واقتناء الكتب

الدينية(شرارة، 2011م).

اتبع رجال الطرق الصوفية منهجاً مبسطاً لنشر العقيدة وتعميق مبادئها يعتمد على التلقين ومداومة الأذكار، كما استعملوا الطبول والترانيم، مما حجب العامة في الانخراط في سلك الطريقة، وكان نجاحهم يعتمد على ما يتمتعون به من علم وخلق ديني، وورع وزهد، وصلاح وبركة، وحماية للضعفاء من عنت الحكام، ومساعدة الفقراء، فأحبهم العامة وأضافوا عليهم الكرامات، ولم يقف هذا التبجيل على العامة بل شاركهم في ذلك الملوك والسلاطين الذين صاروا لا يقدمون على عمل شيء دون أخذ المشورة من مشايخهم، وقد حظي رجال الطرق الصوفية مثل العلماء بالاعون المادي، إذ أقطعهم الحكام الأراضي(حسن، 2015م).

يمثل النصف الثاني من القرن العاشر الهجري /السادس عشر الميلادي عهد ازدهار الثقافة الإسلامية في السودان، ذلك من خلال العلماء الذين حملوا مشاغل العلم ليقوموا بواجبهم نحو تثقيف المجتمع السوداني وتوجيهه إلى تعاليم الدين الحنيف(حسن، 2015م) إن من أوجه مظاهر تأثير العلماء على حركة الثقافة في سلطنة الفونج حرص ملوك الفونج على الالتزام بأداب الإسلام، وكان الملك قائماً على أساس تحلي الملوك بالخلق الإسلامي الفاضل، وحث رعاياهم على الصلاة ووقف حركة البيع والشراء في الأسواق وإغلاق المتاجر في أوقات الصلاة، وكان من عادة الملك أن يجوب مملكته متفقداً أحوال الناس باستمرار حتى لا يفقد حاسة الاتصال الميداني بالناس والتعرف على قضاياهم ومشاكل مملكته(الضوي، 2009م).

كذلك لم يستطع الفونج أن يهملوا التقاليد التي ورثوها في نظم الحكم ومظاهر الحياة إلا أن سيادة أثر الثقافة الإسلامية الخالصة في جوهرها ومظهرها قد أدت إلى قيام حركة البعث الإسلامي في السودان وبهذا استرد الفرد ذاتيته وكيانه في المجتمع كما شعر بحريته بتخلصه من القهر والتسلط الذي مارسه الأقدمون من الحكام وزالت الفوارق وصار يتعامل مع حكامه بموضوعية عملاً بما كفله الإسلام له وازدهرت المملكة على عهد حكامها الأقوياء أمثال الشيخ عجيب المانجلك ابن الشيخ عبد الله جماع الذي كان حريصاً على نشر العلم فقد أنشأ ثلاثة رواقات لإيواء الطلاب في مراكز العلم في مكة والمدينة واهتم بجانب القضاء، وأصبحت سنار مركزاً علمياً شامخاً تطلعت إليها مناطق السودان في الشرق والغرب(الضوي، 2009م).

إن خير معين لدراسة أثر العلماء في نشر الثقافة الإسلامية في السودان على عهد سلطنة الفونج هو البحث عن قيمة نظام التعليم في تلك الفترة، فقد انتشر التعليم

الديني انتشاراً كبيراً حتى عم كل المدن والقرى في عهد سنار، وكثر التأليف فيها حتى أصبح ذلك العصر عصر نهضة في البلاد، وتشير الروايات إلى عدد من العلماء منهم محمود العركي الذي ظهرت في عهده مساجد العلم ومكاتب لتعليم القرآن، ويعتبر أول من نشر أحكام الدين الإسلامي في جزيرة المهوي (جزيرة سنا) من ناحية النيل الأبيض المنطقة التي كانت خالية من معاهد العلم ومساجده قبل قدوم محمود العركي الذي عند ظهوره قام بتأسيس سبع عشرة مدرسة ما بين الحسانية (توتي) وأليس (الكوة)، وهو أول من فقه الناس وأمرهم بالعدة، وهو أول السودانين الذين درسوا في مصر وفي الجامع الأزهر في مطلع القرن العاشر الهجري عند بدايات تأسيس مملكة سنار (العراقي، 2017م)، وكانت مؤسسات التعليم ومعاهده التي تقوم بمهمة التدريس في علوم الدين واللغة العربية تحمل أسماء مختلفة منها مسجد، جامع، مدرسة، خلوة، زاوية، مسيد (العراقي، 2017م). ومما لا شك فيه أن العلماء هم الذين أدخلوا هذه المؤسسات في السودان ونظمها، بل هم الذين عملوا على تأسيسها ومارسوا التدريس فيها، وسوف نقوم بتعريف كل منها على حدة.

1-5. المسجد:

إن أول إشارة للمسجد في السودان وردت في سنة 31هـ/ 652م عندما دخلت الجيوش الإسلامية بقيادة عبدالله بن أبي السرح بلاد النوبة والتي انتهت إلى عقد صلح أطلق عليه اسم البقط بين العرب والنوبة - ومعاهدة البقط هي أول معاهدة في التاريخ بين المسلمين الفاتحين وأهل النوبة، جاءت عندما خرج عبد الله بن سعد بن أبي السرح والي مصر حينها، خرج في جيش تعداده عشرون ألف مقاتل وسار إلى دنقلة عاصمة النوبيين وحاصرها، وفي النهاية بعد حصار طويل استسلم أهل النوبة وسألوا الصلح، فأجابهم المسلمون إلى هدنة عرفت باسم معاهدة البقط، وكان هذا الصلح في رمضان سنة 31هـ - حيث جاء في إحدى بنود ذلك الصلح "... وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم ولا تمنعوا منه مصلياً وعليكم كنسه وإسراجه (الحاج، 2005م).

ساهم المسجد بالإضافة إلى أداء الصلوات في النظام التعليمي حيث كان يدرس فيه الفقه والسيرة النبوية، واشتهرت مساجد كل من دنقلا ونوري والدامر والحلفاية وتوتي (عبد الله، 2015م)، وأشرف الشيخ عجيب المانجلك على بناء الكثير من المساجد للشيخو حيث بنى مسجداً للشيخ حمد النجيب العوضابي الجموعي باسلانج، كما بنى مسجداً في "أحمر موقى" بالقرب من الروصيصر، وبعض المساجد على الحدود الحبشية، وفي بعض أنحاء الجزيرة وشمال الخرطوم

أمثال مساجد أولاد جابر في ديار الشايقية، ومسجد الغيش غرب بربر ومسجد كترانج ومسجد العمراب أبناء الشيخ حامد أبو عصا، الذي نال شهرة واسعة في تحفيظ القرآن، ومساجد قوز العلم قرب شندي للشيخين صغيرون وولده الزين، ومساجد الدواليب في "دبة الفقراء" و"الدفارية" بنواحي دنقلا والعركيين في الجزيرة، ومساجد كثيرة لا يمكن حصرها (الحاج، 2005م).

2-5. السيد:

كلمة مسيد أصلها مسجد ثم صغرها العامة فأصبحت مسيحد ثم حذفت الجيم فصارت مسيد، وهذا معروف عند أهل المغرب العربي، غير أن هذه الكلمة دخلت إلى السودان مع توافد العلماء من الحجاز والمغرب والذين قاموا بتأسيس المسيد في السودان، حيث أصبحت هذه الكلمة في قاموس اللهجة السودانية تعني المسجد وتطلق أيضاً على المكان الذي يضم مدرسة القرآن والمصلى والمسكن (عبد الله، 2015م)، ويذكر المعتمد أحمد الحاج في كتابه "الخلاوي في السودان": (يطلق اسم المسيد على المبنى الذي يضم المسجد وتحيط به من جميع جهاته ما عدا القبلة خلاوي سكن الطلاب، وفي وسط هذه المساكن يوجد مبنى الدراسة الرئيسي "القرآنية أو الجامعة" والمسجد دائماً يكون في وسط الفناء الكبير الذي يحيط بكل هذه المباني، فكلمة المسيد تطلق إذن على الفناء الذي يحيط بالخلاوي والمسجد، أي كل المبنى، وعليه فإن كلمة مسيد تعطي مدلولاً عن المكان الذي تمارس فيه وظيفة التعليم في جانب، ووظيفة التعبد في جانب آخر وهو المسجد) (الحاج، 2005م)

إن من أقدم المساييد التي دونت مسيد الغربية بالقرب من كورتى والمؤرخ إلى 1488م ومسيد كلمسيد بدنقلا، وفي وسط السودان نجد مسيد الجوبر والذي أرخ الى النصف الثاني من القرن السابع عشر وهو المعروف بمسيد أولاد جابر، كذلك وجدت مسايد في كردفان ودارفور وفي شمال السودان مثل مسايد البديرية والدواليب ويسمى المسيد في دارفور "مسيك" وهو مرادف لكلمة خلوة، ويعتمد المسيد في اقتصاده على الأراضي الزراعية التي توهب للشيوخ خاصة تلك التي وهبها ملوك الفونج للشيوخ، بجانب ذلك اعتمد الاقتصاد أيضاً على بعض الصناعات المحلية التي يقوم بها طلاب المسيد مثل صناعة الفخار والطواقي وغيرها (آدم، 2004م).

3-5. الخلوة:

الخلوة أصلاً هي من اصطلاحات الصوفية، بمعنى اعتزال الناس بقصد التعبد والوصول إلى الحقيقة، وتعني إزالة صدأ النفوس مما علق بها من شوائب في تعاملها

مع الخلق، وتقصيرها نحو الخالق، وتعني التقرب إلى الله والتأمل في ذاته (الحاج، 2005م)، ولقد برزت الخلوة باعتبارها مؤسسة تعليمية في السودان، وبرزت لمعالجة فروع الثقافة الإسلامية ولكنها تدرجت لتتخصص في دراسة القرآن وتجويده، إلى جانب دورها الاجتماعي فهي مكان للضيافة، ودار للشكوى وملجأ للفارين من سطوة السلطان (سلمى، 2017م)، إذن للخلوة في السودان مدلول آخر محدد باسم مكان معين تؤدي فيه وظائف التعليم الديني من تعلم للكتابة والقراءة وتحفيظ القرآن في البدء ثم دراسة العلوم الدينية من فقه وتوحيد، وصولاً إلى تعلم آداب الصوفية والانتساب إلى إحدى الطرق (الحاج، 2005م).

وكان التعليم في الخلوة يمر بثلاث مراحل لكل مرحلة شيوخها ومؤهلاتها الخاصة التي تؤهل الطالب لنوع معين من التعليم، حيث تبدأ المرحلة الأولى بتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن ومعرفة بعض الفروض والسنن كتعلم كيفية الوضوء والتميم وأداء الصلاة وآداب الصوم، وطاعة الوالدين واحترام الكبير وتبجيل الشيوخ، بعدها تأتي المرحلة الثانية وهي مرحلة دراسة العلوم من فقه ونحو وتوحيد ومنطق وسائر علوم العربية، على أن هذه المرحلة من أطول مراحل التعليم في الخلوة، أما المرحلة الثالثة فهي الحلم الذي كان يسعى كل طالب خلوة إلى بلوغه حيث يدرس فيها آداب التصوف وطرق وأوقات الأوراد، كما يتعلم فيها رياضة النفس والدخول في الخلوات (الحاج، 2005م).

تعد خلوة دنقلا العجوز "غدار" من أشهر وأقدم الخلوات في السودان في عهد الفونج، إلى جانب خلوة أكد وخلواتي مقاص وكندمورة والشيخ إسماعيل ولد جابر في دار الشايقية، وخلواتي الغبش وخلوة الشيخ فاقم بن الحاج إبراهيم، كما اشتهرت خلواتي العركيين واليعقوباب بالجزيرة، وخلواتي الشيخ خوجلي وحمد ولد أم مريوم بتوتي وبعض نواحي الخرطوم، وخلواتي المجاذيب في الدامر وخلواتي أولاد جابر بقوز العلم قرب شندي (الحاج، 2005م)، فضلاً عن خلواتي أم ضواً بان والتي كانت لها نار تعرف بالتقابة متقدمة منذ أمدٍ بعيد ولم تنطفئ (عبد الله، 2015م).

4-5. الزاوية:

وهي من المباني الدينية التي تأثرت بنظام شمال أفريقيا والزاوية هي مكان لإقامة الشيخ حيث نجدها في السودان تستخدم في المناسبات الاجتماعية وقد ارتبطت في الفترات الأخيرة بالطرق الصوفية وقد انتشرت في أنحاء عديدة (آدم، 2004م)، عرفها السودان منذ العهد الفونجي باعتبارها دار يأوي إليها الغرباء، ومن أشهر الزاويات في عهد الفونج زاوية عمار بن الحفيظ في سنار (الحاج، 2005م).

لقد أدت هذه المدارس والمساجد والمساييد والخلالوي والزوايا في دولة الفونج دوراً بارزاً لا تكاد تحطئه العيون في شتى مجالات الحياة حيث هذبت وطورت المجتمع من أرجاس الوثنية ومخلفات المسيحية وأصبح أكثر قرباً وتمسكاً بتقاليد الإسلام وتعاليمه السمحة ويبدو ذلك جلياً في الملامح العامة التي اتصفت بها المجتمعات السودانية إبان عهد دولة الفونج، كل ذلك حدث نتيجة لجهود العلماء وانتشار دور العلم والصلاح والعبادة.

تم في بلاد السودان في تلك الفترة الامتزاج الكامل بين التقاليد الإسلامية التي وفدت إلى سنار وبين التقاليد المحلية التي سادت أكثر جهات السودان، وبرز طابع محلي في الحضارة الإسلامية، إسلامي الصورة والبيئة سوداني الطابع والاتجاه، هذا التطور أكثر وضوحاً فيما عرف من تقاليد ورسوم ونظم حكم عرف بها الفونج، أو فيما عرف بالثقافة الإسلامية العربية في سلطنة الفونج (محمود، د.ت).
الخلاصة:

إن القيمة الحقيقية والمادية لسلطنة الفونج والتي يجب أن يقف عندها السودانيون بكل فخر واعتزاز هو أنها أي سلطنة الفونج بجانب سلطنة الفور تمثل السهم الذي دفعه السودانيون لإفريقيا عندما شمرت ساعدها لخدمة الدين الإسلامي عبر فترة مهمة من تاريخها عرفت بفترة السلطنات والممالك الإسلامية في إفريقيا، حيث نشأت العديد من السلطنات في غرب إفريقيا وشرقها ووسطها ساهمت بسهم وافر في إرساء قيم الحضارة والثقافة الإسلامية معلنة عن نهاية فترة مظلمة عاشتها القارة الإفريقية سادت فيها الوثنية بكل مشاربها من جهل وفقر وتخلف، وعندما صنعت إفريقيا لنفسها هذا المجد اعتمدت على أبنائها الذين كرسوا للعلم والاطلاع فجابوا البلاد العربية التي سبقتهم في النور والحضارة ليعودوا إلى إفريقيا مستتيرين قادرين على قيادة مجتمعاتهم فكانت النهضة والحضارة، وتلك فائدة لاشك أنها ألقت بظلالها الإيجابية على المجتمعات الإفريقية الحالية بوجه عام والمجتمعات السودانية على وجه الخصوص.

النتائج:

1. إن السودان قبل قيام كيان سلطنة الفونج سادت فيه التقاليد المسيحية المخلوطة ببعض العادات الوثنية وأن المسيحية نفسها لم تتخذ فيه جذوراً عميقة.
2. إن سلطنة الفونج تُعد نقطة تحول حاسمة في التاريخ الثقافي والديني بأرض السودان، وأنها أسهمت بشكل جاد في خلق البنية التي شكلت الهوية الثقافية للإنسان السوداني.

3. كان العلماء ورجال الطرق الصوفية وراء ما تحقق من نهضة ثقافية دينية في سلطنة الفونج.

4. قدم أولئك العلماء معرفة وثقافة ثرة أحدثت تغييراً جذرياً في البنية الثقافية الدينية في السودان، الأمر الذي يعد فائدة لازالت المجتمعات تجني ثمارها إلى يومنا هذا.

التوصيات:

1. ضرورة إجراء المزيد من الدراسات التي تستهدف بيان القيمة الحقيقية للدور الذي أدّاه العلماء في سلطنة الفونج، وذلك حفاظاً على الإرث التاريخي الثقافي المادي لهذه البلاد.

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم.
2. إبراهيم، هلال (1359هـ)، التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة، دار النهضة العربية، بيروت لبنان.
3. أبو علي، أحمد بن الحاج (2009م)، مخطوطة كاتب الشونة في تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية، تحقيق الشاطر البصيلي عبد الجليل، الدار السودانية للكتب، الخرطوم.
4. أحمد، الأمين الحاج محمد (2000م)، وقفات مع كتاب الطبقات، مركز الحق للطباعة والنشر والتوزيع والاعلام، بيروت - لبنان، ط1.
5. أحمد، حسن مكي محمد (2002م)، السودان الجديد وحوار العروبة والإفريقية - رؤية تحليلية، المجلة السودانية للدراسات الدبلوماسية، الخرطوم، العدد الثاني.
6. آدم، أحمد حسين عبد الرحمن (2004م)، الدلالات الأثرية للامتداد السياسي والديني لدولة الفونج بين الشلالين الرابع والثالث، أطروحة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الآداب، جامعة الخرطوم، كلية الآداب قسم الآثار.
7. الجمل، شوقي (2008م)، تاريخ السودان وادي النيل، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1.
8. الحاج، المعتصم أحمد (2005م)، الخلاوي في السودان نظمها ورسومها حتى نهاية القرن التاسع عشر، دار عزة للنشر والتوزيع.
9. حاج حمد، حاج حمد تاج السر (د.ت)، أولاد جابر أبكار الدعوة الإسلامية

10. حسن، يوسف فضل (2015م)، الهجرات البشرية وأثرها في نشر الإسلام في السودان، شبكة الألوكة الثقافية.
11. حسن، عبد الله (2012م)، السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية، ج1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر - القاهرة.
12. الدمشقي، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر (1973م)، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت - لبنان.
13. سلمى، يوسف محمد عبد الله (2017م)، سنار في الوجدان السوداني - رمزية سنار، أوراق سنار عاصمة الثقافة الإسلامية، التجربة السنارية وبناء الدولة الحديثة في السودان، جامعة الزعيم الأزهرى.
14. سيد أحمد، عايده (2012م)، سيرة محمد بن عيسى سوار الذهب، موسوعة التوثيق الشامل.
15. شترة، خير الدين (2011م)، محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني المصلح التأثير وفكره الاصلاحى في توات والسودان الغربى، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، دار ابن الطفيل للنشر، ج1.
16. شرارة، عمر علي محمد طه (2011م)، الدولة الدينية في السودان، الشركة العالمية للطباعة والنشر، السودان، ط1.
17. الصادق، صلاح عمر (2006م)، دراسات سودانية في الآثار والفولكلور والتاريخ، دار عزة للنشر والتوزيع، الخرطوم - السودان.
18. الضوي، معتصم الحارث (2009م)، الشخصية السودانية هوية متفردة وثقافة متنوعة، الشبكة العربية العالمية - نقد ودراسات.
19. ضيف الله، محمد (1349هـ)، الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان، مطبعة محمود علي صبيح، القاهرة.
20. عبد الله، أسامة عبد الرحمن الأمين (2015م)، الدراسات السودانية، المكتبة الوطنية - السودان، ط1.
21. عبد الله، محمد كباشي (2010م)، ملامح من الثقافة السودانية، دار جامعة الخرطوم للطباعة والنشر.
22. العراقي، تاج السر (2017م)، نظام التعليم في العهد السناري (910 - 1236هـ/ 1504هـ - 1821م)، أوراق سنار عاصمة الثقافة الإسلامية، مؤتمر التجربة السنارية وبناء الدولة الحديثة في السودان، جامعة الزعيم الأزهرى.

23. علي، قيس إبراهيم أحمد(2009م)، 400 عام على مولد العلامة أرباب العقائد، ورقة علمية، مكتبة جلال داؤود أبو جهينة.
24. عمر، حذيفة الصديق (2006م)، تاريخ السودان الوسيط، منشورات جامعة السودان المفتوحة، مطبعة النيلين المحدودة، ط1.
25. عيسى، خضر آدم (2010م)، تاريخ السودان الوسيط وآثاره، دار جامعة الخرطوم للنشر، الخرطوم.
26. فتح الرحمن، عثمان سراج الدين (د.ت)، تاريخ الطرق الصوفية في السودان، موقع الفحل على الانترنت.
27. القاضي، الصديق الشيخ محمد مالك (2008م)، سيرة الشيخ أرباب العقائد، منتدى التكنينة على الانترنت، تاريخ البحث 4/5/2017م، 11:11pm.
28. محمود، حسن أحمد(د.ت)، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، دار الفكر العربي، القاهرة.
29. ناعوس، بن يحي الطاهر (2010م)، سيرة محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني، شبكة الألوكة على الانترنت.
30. يحي، جلال (2010م)، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي الحديث.